السفير ٦/٤/١٩٨٤

رأي

كلام عفوي من وحي حواجز الخطف

المحامي كميل داغر

كان خطر بذهني في البدء ان ياخذ كلامي طابع رسالة مفتوحة الى احد القادة الاساسيين للمنطقة التي انا فيها، قلت كان خطر بذهني توجيه كلامي الى احد القادة الاساسيين لهذه المنطقة لكنني عدلت في اللحظة الاخيرة كي تتسم هذه المباسطة بطابع اكثر شمولا، وتاخذ بالتالي شكل كتاب مفتوح الى الناس البسطاء، العاديين، وهم غالبية ساحقة من اللبنانيين ، يدفعون كل يوم الضريبة الفادحة لمذبحة الطوائف.

ولانها مباسطة عفوية، ودون قيود، فقد سمحت لنفسي ، ولو لهذه المرة، بان اخرج من الخطاب المدروس الى عرض وقائع بسيطة واحداث جزئية، صغيرة، مرتبطة مباشرة بما يعتبره البعض واقع لبنان المحتوم، واقع الطوائف والمناطق والعائلات، هذا « البعض » الذي يرى في اية محاولة للافلات من « الواقع » المذكور عملا طوباويا حالما ولا افق لـه. قلت في نفسي: لا باس ، دع احـلامك وتطلعـاتك « الطوباوية »، ولو لبرهة وجيزة، وانطلق من « واقع الطوائف والمناطق والعائلات، ادخل الى زرائب اوجياس اللبنانية، كما هي، هذه الزرائب التي ما تزال تنتظر بياس، ورغم انهار الدم التي سالت ، هيراكليسا(*) ينظفها. هكذا، ساروي لكم بعد قليل تجربة الاخوين زياد واكرم د.، من بلدة ت. المارونية الشمالية، على حاجزي مار مخايل (الشياح) والبربير (بيروت). وهي تجربة تشبه، في كل حال، تجارب الالاف من المواطنين ، وان كانت اخف قساوة بكثير، بالتاكيد، من تجارب بعض من يمرون على الحواجز الطائفية السوداء في المنطقة الشرقية، الخاضعة لسيطرة الفاشيين، وعلى راسها حاجز البربارة المشهور.

لكن قبل ذلك، دعوني اوضح مسالة مبكية مضحكة، تبين مدى عبث الشكل الحالي من الصراع. فالعائلات الاساسية في بلدة ت. المارونية (اي ٩٥٪ من ابنائها) تتحدر من جد شيعي قدم اليها من ارض عربية قبل قرون، وتمورن فقط لان الفلاحين الذين سكنوها انذاك كانوا موارنة. ثم حين بدات النزوحات من البلدة المذكورة في القرن الماضي الى انحاء مختلفة من لبنان، بدل النازحون انتماءهم الطائفي حسب المناطق التي نزحوا اليها، فباتوا سنة او ارثوذكسا او كاثوليكا او شيعة، لمجرد ان الغالبية في محل الاقامة الجديدة سنة او ارثوذكس او كاثوليك او شيعة، مثلما ظلوا موارنة في مناطق قصدوها واتصفت بالغلبة المارونية. ولعل هذه هي حال غالبية ابناء هذا البلد. وبالتالي - اذا تحدثنا من منطق الطوائف - فاننا نجد الان مارونيا من اصل شيعي يقتل شيعيا من اصل ماروني، او يجلده، او يقضم اذنه، والعكس بالعكس. ثمة بالتالي ، في كل هذا، مفارقة ساخرة، اليس كذلك؟!

المهم فان يزيد د. ، الماروني من بلدة ت. ، وذي الاصل الشيعي - لكي نتحدث طائفيا ، او « واقعيا » كما يريد البعض - اختطف قبل اشهر قليلة على حاجز مار مخايل، الشيعي.

اما شقيقه فاختطف قبل ايام (الاثنين ٢ نيسان) على حاجز البربير الذي انتقل الى ايدي الطرف ذاته الواقف على حاجز مار مخايل. ولم يخرج من الزنزانة الا بعد ان انطبعت في جسمه آثار عميقة وفي نفسه آثار اعمق .

وفي الحالتين كان الشابان اليافعان، ابنا العامل البسيط في معامل الشمال، يعتقدان انهما يمارسان حرية الانتقال داخل الوطن الواحد، غير معيرين اهتماما لانتماء طائفي ليسا مسؤولين عنه. لكنهما سيمتنعان بعد اليوم، ولامد ربما سيطول، عن مغادرة القاطع الاخر من الوطن، ومعهما في هذا الموقف كل اهلهما واصحابهما ومعارفهما، على الارجح، تماما كما يمتنع الكثيرون من قاطني المناطق غير الخاضعة لسيطرة الرجعية المارونية المسلحة عن المرور في - او الذهاب الى - مناطق السيطرة الكتائبية الفاشية. اما اهمية هاتين الحالتين فتمكن في انهما جزء من حالات كثيرة، تتكرر كل يوم.

وهو امر يستدعي بعض الملاحظات:

١ - اذا كان الاستاذ المحامي نبيه بري يثير التضامن والاعجاب حين يشدد على ان « حركة امل » ستقاتل التقسيم ٩٩ عاما ، اذا اقتضى الامر، فان ما يجري على الحواجز من امور شبيهة احيانا بما يجري على حواجز « القوات اللبنانية »، انما يصب الماء في طاحونة التقسيم، ويساعد في تسهيل مخطط الرجعية المارونية الداعي الى الفدرالية والكانتونات.

٢ - ان بيروت الوطنية ينبغي ان تكون المختبر المركزي لصيغة وطنية حقيقية لاعادة توحيد لبنان على اساس ديموقراطي لا طائفي. وكل ما لا يخدم هذا الهدف لا بد ان يخدم، على العكس، مخطط اسرائيل لتفتيت لبنان وركوب طوائفه مطية لتحقيق اهدافها العدوانية في الوطن العربي بكامله.

من هنا الاهمية القصوى للضرب بيد من حديد على كل الممارسات الطائفية التي تطل برأسها هنا وهناك، لاسيما في العاصمة ، وبالتالي الغاء حاجز البربير الطائفي - تمهيدا لسحق حاجز البربارة الطائفي الفاشي - واعطاء صورة اخرى لبيروت وطنية حقا، تستقبل المواطنين من كل الطوائف وتتعامل معهم على اسس بعيدة كل البعد عن عامل الانتماء الطائفي، لا بل تكسبهم الى مشروع وطني حقيقي، يتناقض جذريا مع مشروع الرجعية المارونية.

ذلك اننا، في التحليل الاخير، لن نلغي الطائفية بطائفية مضادة، ولن نقهر التقسيم، الفعلي كما الحقوقي، بتقسيم من الجوهر نفسه تحدده تذكرة الهوية ونقطة العبور.

- ٤ نيسان ١٩٨٤ -

(*) تتحدث الاسطورة اليونانية عن زرائب الملك اوجياس التي لم يستطع هيراكليس، ابن زوش، ان ينظفها الا بعد ان اجرى فيها نهر الفي المشهور.